كتاب مستقبل الثقافة فى مصر

الثقافة العامة

وتعليم اللاتينية واليونانية

للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصري بك

[تتمة]

قد يخطر على بال الإنسان أن يتساءل عند ما يلقى نظرة عامة على هذه الأطوار المتتالية : هل تقف يا ترى سلسلة هذه التطورات عند الحد الذى وصلت إليه أخيراً ؟ أم ستستمر بعد الآن أيضاً ؟ هل يجوز لنا أن نقول إن التطور الأخير سيكون خاتمة الأطوار ؟ أم يجب علينا أن نتوقع حدوث تطورات أخرى بعد الآن أيضاً ؟..

أنا لا أرى لزوماً للتنبؤ عن مستقبل هذه التطورات ، لأننى

حيث لا نتوقع قدومها . فماذا يكون الرأى إذا خرجنا من الحرب وعندنا ثمانية ملايين امرأة ، وليس عندنا من الرجال إلا سبعة ملايين أو سبعة ونصف مليون ؟ !

اليوم يتكفل الماء العفن بحصد الرجال وتلقيحهم بلقاح : « الأنكلستوما والبلهارسيا » حيثما انتشر ماء الرى فى إقليم جديد فيصاب الفتيان ولا يصاب الفتيات ، ويضعف الرجال ولا يضعف النساء .

فإذا جاءت الحرب ، فأتت هذه البداية ، فماذا يبقى من أناقة الجنس اللطيف ؟ ومن ترف المتماليات على الضر أمام هذه الضرورة التى لا تحسن الكلام بلغة « الندى » ، ولا تنحنى فى رقة وابتسام كما ينحنى رواد الصالون ؟

نسوق النساء إلى الزراعة ؟ نقسرهن على العمل ؟ نستبدلهن بالرجال فى مشاق الأشغال ؟

على كل حال ذهبت الأناقة والترف ، وذهبت معهما مزايا الجنس اللطيف ، ولو كان المشتغلات بتلك المرهقات من بنات الكوخ والبيت الوضيع ، ولم يكن من بنات الندى والصالون

ثم هو حل لمشكلة العمل ، فأين الحل لمشكلة النوع ومشكلة الأسرة ومشكلة الأخلاق ؟ !

عمل عظيم بين يدى « وزارة الشئون الاجتماعية » أعانها الله عليه ! ...

عباس محمود العقاد

أعتقد أن ما عرفناه عن التى حدثت إلى الآن كاف لتوضيح وحل المسألة التى من أجلها خضنا غمار هذا البحث ... مع هذا أرى من المفيد أن أنقل بعض الكلمات التى قرأتها أخيراً — فى هذا الصدد — فى إحدى المجلات التربيوية :

« لقد فرّقت بين الإنسانيات القديمة والمجتمعات الحالية هوّة خطيرة لا تزال تزداد عمقاً وعرضاً ، يوماً فيوماً ... إن دور الإنسانيات المذكورة قد انتهى ، ولم يعد فى استطاعتها أن تدعى حق البقاء كمنبع للثقافة العصرية ... إنها لا تعيش الآن إلا عيشة اصطناعية ؛ فقد فقدت كل ما كان لها من قوة وحياة ... »

كذلك أرى من الممتع أن أذكر ما كان قاله « لابيه دوسان بيير » فى هذا الصدد :

« سيأتى يوم نفهم فيه : أن حاجتنا (يعنى حاجة الفرنسيين) إلى تعلم اللغة اللاتينية ، أقل من حاجتنا إلى تعلم اللغة المالائية أو تعلم اللغة العربية ... »

إننى أعتقد أن الحقائق والوقائع التى سردتها آنفاً ، حول مسألة تعليم اللاتينية واليونانية فى الدراسة الثانوية فى أوربا بوجه عام وفى فرنسا بوجه خاص ، تعين لنا بكل وضوح الموقف الذى يجب أن يقفه مفكرو العرب حيال هذه المسألة بالنسبة إلى معارف البلاد العربية : لا شك فى أن هذا الموقف يجب أن يكون موقف الرفض والإعراض ...

يجب علينا أن نتذكر — فى هذا الصدد — الحقائق التالية على الدوام :

إن تعليم اللاتينية واليونانية فى أوروبا لم يشغل الموقع الذى شغله فى نظم الدراسة بناء على تأملات وملاحظات تربيوية ؛ إنما شغل هذا الموقع تحت تأثير عوامل ووقائع تاريخية كلها خارجة عن نطاق الفوائد التربيوية ... وأما الفوائد التعليمية والتربيوية التى ذكرت فيما بعد لتبرير الحالة الراهنة — بنية إبقاء ما كان على ما كان — فلا تستطع أن تقاوم المحاكمات المنطقية والأبحاث العلمية مدة طويلة ... ولهذا أخذ نطاق هذا التعليم يتقلص من جميع الجهات تقلصاً مستمراً ؛ ولم يعد يمتد الآن إلا على جزء صغير من ساحة الدراسة الثانوية ... كما أن بقاء هذا التعليم فى هذه الساحة الأخيرة أيضاً لا يمكن أن يعلل ويبرر إلا بقوة الاعتياد والاستمرار من جهة وبرابطة الأدب واللغة من جهة أخرى

وأما فكرة اعتبار اللاتينية « واسطة ضرورية لتثقيف

المعقول » فهى من النظريات التى ثبت خطؤها كل الثبوت : إذ قد أصبح من المسلم فى علم التربية أنه لا يوجد موضوع مدرسى « مثقف » فى حد ذاته كما أنه لا يوجد موضوع مدرسى يحتكر قابلية التثقيف لنفسه ... وأما « التأثير التثقيفى » الذى يحصل من الدروس فلا يتبع الموضوع الذى يُدرَّس ، وإنما يتبع الطريقة التى يتم بها التدريس ... فعندما نود أن نجعل « الثقافة » هدفنا الأسمى فى الدراسة الثانوية يجب علينا أن نعلم حق العلم أن الوصول إلى هذا الهدف ، لا يتم إلا بالبحث عن أوفق « طرق التدريس » لضمان التثقيف والسير على تلك الطرق على الدوام . وأما إضافة لغة أو لغتين من اللغات الميتة إلى مناهج الدراسة ، فلا يمكن أن يضمن لنا شيئاً من أهداف التثقيف بوجه من الوجوه

فليس من المعقول ـ والحالة هذه ـ أن نضيع أوقات طلابنا فى المدارس الثانوية فى سبيل تعليم اللاتينية واليونانية

هذا ... ولا بد لنا من ملاحظة الحقائق الهامة التالية أيضاً فى هذا الصدد :

(ا) إن تعليم اللغة العربية يستنفد من أوقات وجهود أبنائها أكثر من الأوقات والجهود التى تتطلبها اللغات الأخرى من أبناء الناطقين بها ؛ وذلك لزيادة تعقيد قواعد العربية من جهة وللنقائص السائدة على أساليب تدوينها من جهة أخرى

(ب) إن حاجة أبناء العربية إلى تعلم اللغات الحية أشد من حاجة الأمم الأوربية الراقية إلى تعلم تلك اللغات ؛ وذلك لفقر خزانة الكتب العربية من جهة المؤلفات العلمية والأدبية

(ج) إن تعليم اللغات الأوربية الحية يتطلب من الناطقين بالضاد جهوداً أكبر من الجهود التى يتطلبها من سائر الطلاب الأوربيين ؛ وذلك لاختلاف الحروف من جهة وتباعد الأصول والقواعد والأساليب من جهة أخرى

ولهذه الأسباب إذا جاز للأوربيين أن يسرقوا قسما من أوقات بعض أبنائهم فى سبيل تعليم اللغة اللاتينية ـ بأمل الحصول على بعض الفوائد ولو كانت ضئيلة ـ فلا يجوز لنا نحن أن نقتدى بهم فى هذا الباب

وإذا جاز للأوربيين أن يخيّروا أولادهم بين دراسة اللغات الميتة ودراسة اللغات الحية ، فلا يجوز لنا نحن أن نفكر فى مثل هذا التخيير

إذاً يجب علينا أن نتذكر دائماً أننا فى حاجة قصوى للاقتصاد فى أوقات طلابنا وجهودهم لكثرة الأشياء التى يحتاجون إلى تعلمها ولزيادة الأوقات التى يحتاجون إليها لأجل هذا التعليم

هذا من جهة ومن جهة أخرى يجب علينا أن نفكر فى أمر آخر أهم من ذلك أيضاً : هذا الأمر هو ضرورة الاهتمام بمعالجة النزعة الكلامية المستولية على أفكارنا ... إننا كثيراً ما نهتم بالألفاظ اهتماماً كبيراً ، وقلما نسعى لتحديد معانيها تحديداً كافياً ... وكثيراً ما ننخدع بالكلمات الفارغة ، ونترك مجالاً واسعاً لتغلب الكلاميات على مناحى تفكيرنا .. فلا نغالى إذا قلنا بأننا مصابون — على الأكثر — بداء الكلاميات ... إن أوربا أيضاً كانت مبتلاة بمثل هذا الداء ؛ وقد صرف مفكروها ومربّوها جهوداً عظيمة لمحاربة هذه النزعات الكلامية ، وتغليب روح التفكير الحقيقى ونزعة البحث العلمى عليها ... ونحن الآن فى حاجة شديدة إلى الاقتداء بهؤلاء فى هذا المضمار . وأعتقد أن هذه الحقيقة يجب أن تبقى نصب أعيننا على الدوام عندما نفكر فى وسائل ترقية ثقافتنا ...

إننى أعتبر فكرة إدخال اللاتينية واليونانية فى مناهج الدراسة الثانوية من الأفكار الخاطئة والمضرة من هذه الوجهة أيضاً لأنها تؤدى — بطبيعتها — إلى زيادة حصص اللغات فى دراساتنا زيادة كبيرة ، وذلك يزيدنا استغراقاً فى الكلاميات ويبعدنا عن مناحى التفكير الصحيحة ...

ولهذه الأسباب كلها أعارض هذه الفكرة معارضة شديدة

هذا ولا أرانى فى حاجة إلى إيضاح أننى لا أقصد من هذه المعارضة أن أعترض على كل من يود أن يتعلم اليونانية أو اللاتينية بل بعكس ذلك أتمنى أن يظهر بيننا من يولع باليونانية ويتخصص فى آدابها ويسعى لترجمة مخلداتها ، كما أتمنى أن يظهر من يتعلم اللاتينية ومن يتعلم الروسية وحتى من يتعلم اليابانية ، ليتسنى لنا الاستفادة من نتاج تفكير جميع الأمم على اختلاف ثقافاتها .. غير أن إبداء التمنى لظهور بعض الاختصاصيين من أبناء العرب فى الآداب اللاتينية واليونانية شىء واعتبار تعلم هاتين اللغتين من ضرورات الدراسة العالية فى الحقوق والتاريخ والجغرافيا شىء آخر ...

فأقول لذلك : إننا إذا أدخلنا اللاتينية واليونانية إلى مدارسنا الثانوية يكون مثلنا كمثل الخياط النبيّ الذى تناقلت قصته بعض الأقلام : بذل الخياط المذكور جهوداً كبيرة فى خياطة « بنطلون » لبحار انكليزى شبيهاً « بينطلونه » القديم الذى

كان سلمه إياه. وأتقن الخياطة إلى درجة تقليد الترقيع الذى به أيضاً!

بعد أن شرحت رأيى فى مسألة تعليم اللاتينية واليونانية شرحاً عاماً أرجع إلى آراء الدكتور طه حسين فيها ، وأبين ما أعتقده فى هذه الآراء على ضوء المعلومات التى سردتها :

إن أول ما يلفت الأنظار فى ملاحظات الدكتور فى هذا الباب ، هو خلوّها من الأدلة والبراهين ، وتكوّنها من سلسلة دعاوى معروضة على شكل نصوص قاطعة يجب الاعتماد عليها بدون طلب برهان . كأن لسان حاله يقول على الدوام : « آمنت أنا ، فليكم أن تؤمنوا أنتم أيضاً »

فإنه عند ما يذكر إيمانه العميق بضرورة اللاتينية واليونانية للثقافة المصرية يقول : « والأدلة على ذلك تظهر لى يسيرة هينة وجلية واضحة » (ص ٢٨١) ولكنه لا يذكر شيئاً عن تلك الأدلة . فكل ما يكتبه بعد العبارة المذكورة لا يخرج عن نطاق بيان « جهل » معارضيه و « نقص دراساتهم » و « عدم إتقانهم الشؤون الثقافية فى أوربا » و « عدم نظرهم إلى التعليم نظر التعمق والجد... » وما أشبه ذلك من تعبيرات التجهيل والازدراء

إنه عند ما يتطرق إلى مسألة « تأثير هاتين اللغتين فى تكوين العقل » تلك المسألة الهامة التى تكوّن حجر الزاوية فى دعاوى أنصار اللغات القديمة لا يكلف نفسه مشقة شرح المسألة ، لأنه يعتقد أن ذلك فوق مستوى فهم معارضيه ! ويسجل اعتقاده هذا بصراحة كبيرة إذ يقول : « كل هذا ولم أتحدث ولن أتحدث عن أثر هاتين اللغتين فى تكوين العقل وتقويمه وتثقيفه وإعداده للتفكير المستقيم فإن هذا الحديث إن ذهبت إليه لم يفهم عنى ، لأن فهمه يقتضى معرفة هاتين اللغتين وممارستهما وابتلاء آثار هذه المعرفة والممارسة ، والذين يعرفون هاتين اللغتين فى مصر يمكن إحصاؤهم على أصابع اليد الواحدة أو على أصابع اليدين » (ص ٢٩٧)

وأخيراً عند ما يتطرق الدكتور إلى الحالة الراهنة فى أوربا ويشير إلى الخصومة القائمة بين أنصار اللغات القديمة وخصومها ، يتهم معارضيه « بالإلمام اليسير ، بل بالإلمام الناقص المشوّه » بهذه الخصومة (ص ٢٨٥) ثم يحاول أن يصف هذه الخصومة «على وجهها الصحيح» . غير أن من يقارن بين ما يقوله الدكتور فى هذا الباب وبين التفصيلات التى سردناها آنفاً ، يرى أن « الوجه » المذكور بعيد عن الصحة بعداً كبيراً ...

يقول الدكتور طه حسين : « إن موضوع هذه الخصومة لم يكن ضرورة هاتين اللغتين للثقافة والحضارة » (ص ٢٨٥) فى حين أن المؤلفات والمجلات التربيوية مملوءة بمباحث ومناقشات طويلة عن ضرورة أو عدم ضرورة هاتين اللغتين للثقافة والحضارة

يقول الدكتور : « كان موضوع الخصومة فى حقيقة الأمر هذه المسألة : أيجب أن يتهيأ الناس جميعاً للعلم والتخصص ، أم يجب أن يهيأ بعضهم لحياة العلم والتخصص ويهيأ أكثرهم للحياة العاملة ؟ » (ص ٢٨٥) فى حين أن ذلك أيضاً بعيد عن حقائق الأمور بعداً كبيراً ...

يقول الدكتور: « إن الخصومة حول تعليم اللاتينية واليونانية قامت فى أوربا منذ أواخر القرن الماضى بين الديمقراطيين والمتطرفين من جهة ، وبين المعتدلين والمحافظين من جهة أخرى » (ص ٢٨٤) فى حين أن الخصومة كانت قائمة فى عالم الفكر والتربية قبل أن تنتقل إلى ساحة السياسة بمدة طويلة ...

وقد أسهبت آنفاً فى تلخيص المناقشات التى دارت فى أوربا حول هذه المسألة ، فلا أرى حاجة للتوسع فى تفنيد مدعيات الدكتور طه حسين فى هذا الباب

أود أن أختم انتقاداتى هذه بملاحظة صغيرة : عند ما يشرح الدكتور النظام الذى يقترحه لترقية الدراسة الثانوية يقول : « وكل من أراد أن يهيئ نفسه بعد الثقافة العامة للدراسات الأدبية المختلفة كالتاريخ والجغرافيا والفلسفة والآداب الخالصة لإحدى اللغات فرضت عليه اللغة اللاتينية ولغة أجنبية حيّة وخيّرته بين اللغة اليونانية ولغة أوربية أخرى » (ص ٣٠١) وإذا لاحظنا أن الطالب المذكور سيدرس — بطبيعة الحال — اللغة العربية وآدابها أيضاً ؛ نجد أنه سيتحتم عليه درس أربع لغات مختلفة على أن تكون الواحدة منها اللاتينية على كل حال .. إننى أعتقد بأن إشغال الطلاب — خلال دراستهم الثانوية — بهذا القدر من اللغويات لا يهيئهم إلى الدراسات المذكورة ، بل يجعلهم أقل قابلية لاستساغتها بالمعنى الذى يفهم الآن فى دراسة الفلسفة والتاريخ والجغرافيا

أبو خلدون